البـــاب الرابـــع

التقـــــدم

- الإنسان كفرد
- العواطف والمشاعر والتذوق
- تذوق الجمال
- الإنسان كوحدة بناء لمجتمع
- الاقتصاد والسياسة

مفهوم التقدم عندنا لايخلو من الغموض والالتباس. فما التقدم ؟ وكيف نفهم مضمونه (كلفظ ومصطلح)؟

إن كلمة التقدم تعنى لغويًا السير إلى الأمام أو الحركة إلى جهة معينة، وهو ضد التأخر أو التراجع أو التخلف. وقد يكون نحو نهاية محددة سلفًا والاتجاه نحو غاية معينة فى مجال محدد والاقتراب التدريجى منها. وقد يكون التقدم من (الناحية الفلسفية) غير متناه؛ أى انتقال ضرورى من حد سابق إلى حد لاحق بدون نهاية كما فى تسلسل الأعداد مثلاً. . !

إن مضمون التقدم كمصطلح هو فى جوهر انتقال تدريجى فى نظام متصل من الأدنى إلى الأعلى أو من الضعف إلى القوة، أو من النقص إلى الكمال، أو من الحسن إلى الأحسن. ويختلف حكم الناس على طبيعة هذا الانتقال باختلاف القيم التى يتصورونها أو يؤمنون بها، كما تتباين آراء المفكرين فى كيفية الانتقال، فى هذا النظام المتصل، ما بين الحركة فى خط مستقيم أو فى خط لولبى.

ومن طبيعة التقدم أنه تدريجى فى الغالب، لكنه يجب ألا نخلط بينه وبين الشدة أو الازدياد، كأن نقول تقدم المرض أو تقدم الفساد؛ لأن شدة المرض وازدياد الفساد ليست انتقالاً من الضعف إلى القوة أو من النقص إلى الكمال.

إذن ما حالة الكمال والقوة التى يتقدم إليها ويسعى نحوها الإنسان ؟

وللإجابة عن هذا السؤال علينا أن نحدد ما المقصود بالإنسان ؟ هل هو الفرد الذى يعيش فى زمن معين وفى مكان محدد، والكون بالنسبة له هو ما يرتبط بوعيه فى فترات حياته الشخصية ؟ أم الإنسان هو وحدة بناء مجتمع يضم أفرادًا كثيرين وأجيالاً متعاقبة لهم طموحات مشتركة فى جانب ومتنافسة فى جانب آخر؟

وهل هناك نموذج معيارى محدد المواصفات أتى من السماء، من خارج الوعى

الإنسانى، لمفهوم التقدم من جميع نواحيه، وقابل للتطبيق، ويمكن تحديد درجة تقدم الفرد أو المجتمع بمقارنة حاله بهذا النموذج ومدى قربه أو بعده عن مواصفاته؟

ينظر بعض المفكرين فى الثقافة الغربية الحديثة للإنسان كفرد بأنه جزء من الطبيعة؛ أى مستمد فى بنائه من الطبيعة وجميع المواد الداخلة فى تركيب بدنه من الطبيعة، ولكنها منتظمة فى صورة كائن حى يؤدى مجموعة من الوظائف البيولوچية وعلى رأسها (فى حالة الإنسان) التفكير والعقل. يرى هؤلاء المفكرون أن الإنسان فى حركته يخضع للقواعد الحتمية الصلبة للطبيعة وقوانين عملها فى كل الأحوال، ويمكن أن ينظم سلوكه فى صورة آلية على أسس بيولوچية محضة ويمكن توقع فعله ورد فعله بدقة، فالإنسان فى نظرهم واحد الدوافع والأهداف، وهى فيض الإنتاج وتراكم الثروة وتحقيق الأمان لحماية هذه الثروة، وعلى ذلك ينظر لحياة الإنسان بأنها صراع، وتقدمه بأنه ازدياد المهارة فى القنص والصيد وصنع آلات الافتراس والانتصار.

وهناك مفكرون آخرون، وغالبًا من الشرق، يرون الإنسان ثنائى الجوهر؛ أى إنه فى جانب منه مادى التكوين من عناصر الطبيعة يلتزم بقوانينها ككائن حى، أما الجانب الثانى فهو روحى سماوى فيه قبس مما فوق الطبيعة، يؤصل فيه الضمير والوجدان ويبين له الفرق بين الخير والشر. يرى هؤلاء المفكرون أن النظر إلى الإنسان ككائن بيولوچى فقط يجعله كائنًا أنانيًا محبًا لذاته من أجل بقائه، غير مكترث بالكون ويبحث دومًا عن المنفعة واللذة الحسية، وعليه فى سبيل ذلك الصراع والعدوانية، والتربص والافتراس، دون أن يتحمل أى أعباء أخلاقية إلا ما يحقق منفعته فى ظرف معين.

أما النظر إلى الجانب الروحى السماوى، فهو الذى يساند الإنسان للتمييز بين العدل والظلم، بين التراحم والعدوانية، وأوجد الدين والفنون والآداب، هو الذى أمدنا بمعابد قدماء المصريين، ولوحات روفائيل، وتماثيل مايكل أنجلو، وموسيقى تشايكوفسكى، وشعر المتنبى وأبى القاسم الشابى.

الإنسان كفرد

إذا نظرنا إلى موضوع التقدم على مستوى الفرد، أعتقد أنه علينا أن ننظر للإنسان مرة كجسد ومرة أخرى كروح.

(أ) من الناحية البدنية البيولوچية، نقول أنه تقدم من الطفولة إلى المراهقة إلى النضوج البدنى، وهو الغاية من النمو والنماء.

هناك العديد من الآراء عن ماهية النضوج البدنى للإنسان ومواصفاته، وسألخص هنا فكر غالبية العلماء المشتغلين بهذا الموضوع.

يصف البيولوچيون هذه الغاية بأنها الحال الذى يتصف فيه البدن بالمواصفات الآتية:

١ ـ التوازن البنائى: أى إن أعضاء البدن وأجزاءه كاملة التكوين متكاملة البناء متوازنة المكونات.

٢ ـ الكفاية الوظيفية: أى إن كل عضو يقوم بوظيفته على خير وجه.

٣ ـ الكمال والجمال فى الشكل والهيئة مع التناسق، والتناغم بين الشكل والوظيفة للأعضاء كأجزاء وللبدن ككيان كامل متكامل.

وعلى ذلك يمكن الحكم على مدى نضوج أى فرد بمقارنته بمعايير للمواصفات الثلاثة (البناء، الوظيفة، التناسق) متفق عليها ومناسبة للنوع والعمر فى مكان معين وفى زمن محدد. وقد قام المشتغلون بهذه الفروع من العلوم بالدراسة والبحث وتم وضع الكثير من هذه المعايير فى العديد من المجتمعات الإنسانية.

وعلينا أن نتساءل هل هذه المواصفات وتلك المعايير ثابتة، وستبقى كما هى إلى الأبد؟ أم سيحدث تغيير ما فى المستقبل كما حدث فى الماضى من تطور وارتقاء لبناء ووظائف الجسم؟ والإجابة عن هذا السؤال أظن هو دوام التغيير مما يحتم متابعة ومواءمة هذه المعايير باستمرار.

(ب) على الرغم من أن الإنسان المعاصر استطاع بعلمه أن يدرس جسده ويتعرف شكل ومكونات هذا البدن، ووظائفه ولذاته وآلامه، فإنه لا يعرف شيئًا عن الروح.

الروح مجهول القوام والاعتقاد بوجودها هو أصدق العقائد الغيبية التى تمثل أساسًا للدين. وهناك الكثير من المفكرين والعلماء الذين يؤكدون أنه لا تناقض بين الروح والجسد فهما قوام الحياة الإنسانية ولا ينكر أحدهما فى سبيل الآخر.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

إن الإدراك السليم يدفعنا إلى أن ننظر إلى الإنسان كعقل وضمير فى المقام الأول وليس مجرد خلايا وأعضاء ووظائف أعضاء فقط.

أطلق علماء الحياة على الإنسان المعاصر مصطلح (Homo-Sapienes) أو «الإنسان العاقل»؛ الإنسان الذى يملك عقلاً وذكاءً، القادر على الوعى بذاته وبالكون من حوله، المخلوق المميز صاحب الذوق والإحساس.

وكما سبق أن ذكرنا، فإن العقل هو المخ فى حالة نشاط وأداء وظائف، ورغم أن المخ محدود فى تكوينه البنائى لكنه غير محدود فى نشاطه، فهناك العامل البسيط وهناك العالم الكاشف لقوانين الطبيعة. ولحسن حظ الإنسان أنه بعد رحلة تطور طويلة أصبح مخه الآن آية رائعة فى هذا الوجود، بل يعتبر قمة التطور فى عالم الأحياء.

إذا نظرنا إلى مراحل تطور الجهاز العصبى فى الأحياء، فإننا نجد أربع مراحل هى:

١ ـ جهاز عصبى ذو هدف، هو التنبيه للجسم الحى بالعوامل البيئية المحيطة، فيتم الفعل الانعكاسى الذى يحفظ للكائن بقاءه ونماءه.

٢ ـ جهاز عصبى يستطيع أن يتعلم من البيئة المحيطة فيكون لفعل الانعكاس اختيار بين متنوعات.. وتتحكم فى هاتين المرحلتين الچينات بصفة مطلقة.

٣ ـ مرحلة التعلم عن غير طريق المورثات (الچينات) وهى مرحلة استقبال وتخزين واستدعاء المعلومات ونقلها من جيل إلى جيل، وهذا مايتمتع به الإنسان العاقل.

٤ ـ العقل الجماعى للمجتمع، وهذا مايثير مخ الفرد للاهتمام بالآخرين، والاقتناع بالعمل المشترك لخير الجماعة.

وفى البداية، استخدم الإنسان عقله لبقائه وحفظ نوعه بوسائل حيوانية محضة فى صراعه مع الطبيعة المحيطة به من جمادات وأحياء أقل منه حيلة وفكراً، ولكن عندما امتد الصراع إلى الآخرين من أبناء نوعه، تنوعت وتطورت وسائله للبقاء وأصبح العقل روية وتدبراً وبصيرة تنفذ وراء الأبصار، فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور، أصبح العقل مرشداً يميز بين الخير والشر، بين الهداية والضلال، بل وازعًا يعقل ويمنع صاحبه مما تأباه فطرته.

إن المخ الإنسانى يعتبر قمة التطور فى البناء والتكوين من الناحية البيولوچية بمقارنته بالجهاز العصبى لسائر الأحياء، وقد تطور من ناحية البناء ليصبح صالحًا ومهيئًا لينتج فكراً إنسانيًا يتسم بالرفعة والسمو والوجدان والمشاعر التى نصفها بالرقة والرقى.

وصحة وسلامة المخ كعضو من البدن الإنسانى عنصر حيوى لسلامة العقل والرشد، ولكن العقل الإنسانى ليس هو المخ المادى، ولكن أضيفت له طاقة أو محرك من كيان آخر، ويشرح بعض المفكرين ذلك فيقولون: إذا أخذنا آلة الكمان مثلاً نجدها مصنوعة من أخشاب وأوتار، ولكن فى حالة تنشيطها ينتج عنها موسيقى تطرب وتشجى، وهذه الموسيقى ليست أخشابًا وأوتاراً، بل أضيف لهذه المادة شىء آخر من كيان غير مادى، والتفاعل بين الاثنين ـ المادى وغير المادى هو الذى ينتج عنه النغمات وما تتركه فى النفس من أحاسيس.

كذلك مخ الإنسان أضيفت له روحه فأصبح عقله الذى يتدبر أمره، ويلاحظ أن العلوم التى تبحث فى العقل الإنسانى وملكاته تسمى علوم النفس ولاتسمى علوم العقل، وتشمل من الناحية المعرفية (Cognition) دراسة الذكاء والأخلاق والسلوك والضمير والدوافع والغرائز والعواطف. . . . وغير ذلك.

إذن كيف يمكن الحكم على هذه المواصفات بالتقدم أو التأخر ؟

هناك محاولات لوضع معايير لبعض هذه الملكات العقلية، ويمكن على أساسها قياس و تقييم هذا النشاط الذهنى فى الفرد بالنسبة لفرد آخر.

ولنأخذ الذكاء على سبيل المثال:

يُعرّف الذكاء عادة على أنه المقدرة على تحديد الهدف بوضوح والعمل بفاعلية لتحقيقه فى بيئة معينة. وهناك العديد من الاختبارات التى تحدد ما يسمى بمعامل الذكاء؛ وخاصة فى الطفل، وذلك بحساب عمر النضوج العقلى كنسبة مئوية من العمر الفعلى بالسنوات منذ المولد. وطبعًا عمر النضوج العقلى هذا يحدد بناء على اختبارات وأسئلة وأجوبة فى ثلاثة مناحى من النشاط الذهنى؛ وهى الأرقام والحساب وثانيًا اللغة وثالثًا الأشكال، وفى الدول الأوروبية والأمريكية هناك الكثير من الدراسات لتحديد هذه المقدرات فى الأغلب الأعم من أفراد ومجموعات الدراسة، والمفترض أن الذى يحقق معامل ذكاء أكثر من ١٠٠٪ فهو يتمتع بتقدم ملكة الذكاء على الآخرين الذين يحققون نسبة أقل.

وتحدد الأسئلة والأجوبة فى هذه الاختبارات بواسطة مخطط الدراسة بناءً على الثقافة العامة فى ذلك المجتمع ومواصفاتها التفصيلية، وعلى ذلك فهى تساعد وتعطى إطارًا عامًا للتقييم فى مجتمعات أخرى، ولكنها ليست دقيقة فى التعبير عن مستوى الذكاء الفعلى ومن جوانبه المختلفة فى ثقافات أخرى.

ولنأخذ الضمير أيضًا، وهو ماينوط به محاسبة النفس لدفع الإنسان للأعمال أو الامتناع عنها بدافع من داخل ذاته دون تأثير من رقيب خارجى، ولا خوفًا من عرف أو قانون وضعى.

كيف يمكن الحكم بأن هذا الفرد له ضمير متقدم عن ضمير فرد آخر؟

الأمر هنا متروك للآخرين المحيطين وحكمهم مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالثقافة العامة داخل هذا المجتمع وخاصة قيمه الدينية وقوانينه الوضعية وأعرافه وتقاليده.

وكذلك إذا أخذنا الأخلاق والقيم، يكون الحكم عليها بالتقدم والتأخر بالنسبة للفرد حسب السائد فيها فى مجتمعه وثقافته.

إن الحس الأخلاقى فى رأى كثيرين من الفلاسفة، هو حس فطرى كامن فى نفس الإنسان ويميزه عن سائر الأحياء، لكن يمكن للظروف البيئية و التربية والتدريب من صقله وتنميته وتطوير الجوانب الإيجابية، أو طمسه وتخزينه وتأكيد الجوانب السلبية فيه. وهناك اختلاف فى الرأى بين المثقفين والثقافات عن ارتباط الحس الأخلاقى بأى من الوجدان أو العقل. فالشرقيون عامة يربطون الحس الأخلاقى بالوجدان ويمارسون

الفضائل لحسنها ولذاتها دون انتظار لعائد مادى أو معنوى، فالصدق وعمل الخير أخلاق تمارس لذاتها ولما تسبغه على النفس من رضا واطمئنان دون انتظار لقيمة اجتماعية أو فائدة مادية.

هناك أيضًا بعض المفكرين الغربيين البارزين الذين يربطون بين الحس الأخلاقى والعقل، ويؤكدون بأن الأخلاق ما هى إلا إرادة عقلية وممارستها مشروطة بالعائد من هذه الممارسة، وقد مثل هذا الفكر الأساسى لظهور المذاهب النفعية والنظر للإنسان ككائن بيولوچى محض ولكنه متفرد فى خصائصه.

من المؤشرات المهمة لمدى تقدم الفرد هو درجة تعليمه وعدد السنوات الدراسية التى قضاها فى تحصيل المعارف، رغم انتباهنا إلى أن تقييم مستوى التعليم بالسنوات ليس مرادفًا لكمية المعارف المحصلة، حيث إن إدراك الفرد وفهمه لما يتعلم تختلف من شخص إلى آخر، ويصعب التمييز بين الأفراد فى درجة الفهم والاستيعاب بناءً على وسائل الاختبار المتبعة بصورة تقليدية. كذلك هناك فرق بين المعرفة والحكمة؛ أى بين المعرفة واستخدمها المفيد فى الحياة اليومية، ذلك أن الحكمة هى استخدام المعارف الصحيحة فى المكان المناسب وفى الوقت المناسب.

ومن المعايير الأخرى للحكم على تقدم الفرد هو دخله المادى؛ الشهرى أو السنوى، ولكن لا يمكن اعتبار زيادة الدخل علامة للتقدم بدون ربطه بوسيلة الحصول عليه وطبيعة العمل الذى أداه. وسأقوم فيما يلى بشرح أكثر تفصيلاً للنواحى الاقتصادية.

العواطف والمشاعر والتذوق

هناك جوانب وسمات رئيسية وفاعلة فى طبيعة الإنسان تحدد علاقته بالبشر الآخرين والكون من حوله فى مجمله المتكامل وفى تفاصيله الدقيقة، هذه الجوانب هى: العواطف، والمشاعر، والأحاسيس الكامنة فى النفس الإنسانية، وإن كان لها بوادر أولية فى العديد من أنواع الحيوان كالخوف والغضب، والحب والحنان والوفاء، فعاطفة الخوف على سبيل المثال من أقوى وأعمق العواطف غوراً فى كثير من من الكائنات الحية ومنها الإنسان، ذلك أن الخوف يعتبره الكثيرون من المختصين أنه رد فعل غريزى لحماية

البدن أمام تهديد الأخطار وهو مرتبط ارتباطًا قويًا بعاطفة الغضب إما للدفاع عن نفسه ضد خطر الهجوم عليه، وإما الهروب بعيدًا نائيًا بنفسه عن خطر لايستطيع مجابهته.

مظاهر الخوف واحدة فى جميع الأحياء الذين يتمتعون بعاطفة الخوف، ومنها زيادة إفراز بعض الهرمونات، سرعة ضربات القلب، عمق التنفس وسرعته، العرق البارد، انقباض عضلات الشعر، جحوظ العينين، تثبيط الجهاز الهضمى، تركيز الأحاسيس على الخطر من رؤية، وسمع، وشم وانشغال المخ كليًا بمصدر الخطر... وغير ذلك.

والمظاهر البدنية للخوف عند الإنسان هى نفسها عند سائر الكائنات الحية، ولكن فى حالة الإنسان ليست الأخطار إطار ما يهدد وجوده البدنى فقط، ولكن يضاف إليها ما يهدد طموحه وآماله وثروته ومركزه الاجتماعى وتقدمه المهنى... إلخ.

وعلى ذلك فرد الفعل و السلوك يختلف؛ لأن مخ الإنسان قد تطور بصورة فائقة وواسعة حتى عن أقرب الكائنات الحية إليه بيولوچيًا كالشمبانزى مثلاً، وأضيف لمخ الإنسان كثير من المراكز الحسية ذات الوظائف النوعية المتخصصة والجديدة؛ كالذاكرة وتخزين المعارف مثلاً- مما وسع وعمق من قدراته الحسية، أضف إلى ذلك خبراته الاجتماعية من معايشته للبشر فى مجتمعات ذات ثقافات متنوعة وبما تتضمنه من قيم ونظم أخلاقية، وعادات وتقاليد (انظر الثقافة).

صار رد فعل الإنسان أمام عاطفة الخوف أو الحب مثلا، أكثر تعقيدًا، ومنها إمكانية التحكم فى ردود الأفعال الغريزية والتخطيط لردود أفعال أكثر تركيبًا حيث إن الجانب العاطفى للنفس الإنسانية عادة ما يكون خليطًا من المشاعر والأحاسيس، منها الإيجابى ومنها السلبى، منها الفاضل ومنها المعيب؛ ذلك لأن الأفراد والجماعات تختلف فيما بينها فى درجة نمو وصقل عواطفها من ناحية، وفى كيفية حدوثها فى مكانها وزمانها المناسبين، ومن ناحية أخرى فإن كانت هذه المشاعر إيجابية فى طبيعتها عالية فى درجة صقلها، وتستخدم فى مكانها وزمانها المناسب وتبقى تأثيراتها ترفع من قيمة الإنسان ككائن متميز يسمو بوجدانه إلى درجة من الرضا والاطمئنان، تملأ النفس وتجعلها سعيدة منتعشة مقبلة على الحياة، محبوبة ومفيدة تسعى إلى الخير لها ولغيرها من المخلوقات المشاركة لها فى الوجود، متجددة

العطاء دائمة الثناء، تمنع الأذى والشر عنها وعن غيرها وتتعاون للبر والتجويد وازدهار الحياة على هذا الكوكب.

يعتقد كثير من المفكرين، والذين يتبعون دراسة التفسير البيولوچى للسلوك، أنه حتى يكون هناك عاطفة عند الكائن الحى (الخوف مثلاً) فلا بد أن يتمتع بإمكانية التفاعل مع الأحداث دفاعًا وهجومًا، وثباتًا وهروبًا... أما إذا كان الكائن لايستطيع أن يهاجم مصدر الخطر أو يهرب منه، مثل السلحفاة مثلاً، فإن هذا الكائن لا يتمتع بعاطفة الخوف أصلاً؛ أى إن العواطف فى رأى هذه المدرسة الفكرية مرتبطة بفعل مادى محسوس، أما رد الفعل فإما أن يكون ماديًا حركيًا محسوسًا بالنسبة للآخرين، وإما أن يكون داخليًا خافيًا غير محسوس للآخرين، وغالبًا ما يكون تأثير الحالة الأخيرة سلبيًا على البدن، وإن كان أحيانًا إيجابيًا من الناحية الاجتماعية.

لكن علينا أن نتساءل، هل يمكن أن توجد عواطف إنسانية غير مرتبطة بأفعال مادية، بل فقط بدافع معنوى؟ وما معنى «إنما الأعمال بالنيات» سواء أكان هناك فعل مادى أم لم يكن؟ وما معنى الخوف من الله والحساب والعقاب؟

وهذا التساؤل يدفعنا بطبيعة الحال إلى استرجاع وتأمل الخلاف الفلسفى و المنهجى عن طبيعة الإنسان: هل هو مجرد كائن بيولوچى ذى صفات متميزة حسب المدرسة الغربية الحديثة، أم أنه كائن مزدوج الطبيعة؟ أى إنه كائن بيولوچى يتمتع، من ناحية، بصفات كثير من الأحياء الأخرى، ولكنه فى نفس الوقت كائن به روح مقدسة يحسها بعض الناس، ولا يعرف كنهها الجميع!! تلك الروح التى تدفع الإنسان للإيمان بمعتقدات لا يستطيع إقامة الدليل المادى على وجودها، ولكنه يحس نفعها وتأثيرها الإيجابى على سلوكه وحياته.

إن الشرقيين، وعلى رأسهم الصوفيون والبوذيون، يحبون حبًا لذات الحب، ويعطون رغبة فى العطاء بدون انتظار مقابل، ويحسنون صلاحًا للنفس ورغبة فى الرضا والاطمئنان للذات. وذلك تناسقًا مع الجانب الروحى المقدس فى ذات الإنسان، ومن الناس من يصدق ومنهم من ينكر!! ويعتمد مدى التصديق والاقتناع بذلك على طبيعة الشخص وتكوينه ودرجة العمق فى إدراكه!!!.

لكن يبقى السؤال الصعب: كيف يمكن قياس التقدم والتأخر فى هذا الجانب الحيوى فى حياة الإنسان ؟ وكيف يمكن التمييز بين الإنسان رقيق الأحاسيس مرهف المشاعر مهذب الحديث صاحب الضمير الحى المميز ـ عن ذلك الإنسان متبلد الأحاسيس جاف المشاعر، لا يميز الرفعة من الوضاعة، أو الإسعاد من الإحزان بدرجاتهما العديدة؟ وما الطرق الموضوعية الدقيقة للوصول إلى إجابات متفق عليها؟

تذوق الجمال

الوعى الجمالى وتذوق الجمال من المشاعر الراقية الفطرية الكامنة فى النفس الإنسانية، لكن درجة هذا الوعى والقدرة على التذوق تختلف بين الأفراد والأعمار والثقافات.

يجد فلاسفة علم الجمال صعوبة فى تعريف الجمال تعريفًا جامعًا مانعًا، ويعتبره البعض مرادفًا للخير أو الحق، ويتفق معظم المفكرين على أن للجمال مواطن، كما أن للجمال مقومات.

ومواطن الجمال إما خارجية ظاهرة للحواس؛ كالألوان والأشكال والأصوات والحركات، وإما داخلية باطنة يدركها الوجدان، ومقومات الجمال من الناحية الظاهرية هى: التوازن، والتناسب، والتناسق، والتوافق، والتناغم، والانسجام فى مواطن الجمال؛ تلك المقومات التى يحسها الفرد، وتعد حاستا البصر والسمع عند الإنسان أهم حاستين تنقلان إلينا صور الجمال. ومقومات الجمال من الناحية العاطفية جودة المضمون المعرفى وتوافق الشكل مع المعنى، فإذا تذوق الفرد تلك المقومات الظاهرة والباطنة يحس بالارتياح والقبول، بل المتعة والطرب بما يؤدى لامتلاء واكتمال الإحساس بالحياة.

والجمال فى الشىء الجميل لا يكون بتقليد الطبيعة تقليداً حرفيًا، ولكن بإضافة تعبير حرفىٍّ ناجح ومؤثر من روح الإنسان وخياله الممتد وراء المحسوس، فأصل الجمال فى رأى الكثيرين هو القدرة على تكوين الذهنية، والمقدرة التخيلية للفنان المبدع أو الشخص المتذوق على السواء. وتلك مقدرة كامنة فى عقل الإنسان تختلف عن المقدرة الفكرية المنطقية وتسبقها فى الوجود.

ولايمكن تفسير الجمال فى الموجودات بالمصادفة، أو بالضرورة أو الانتخاب الطبيعى للمنفعة؛ لأن الجمال يتجاوز الفائدة المادية ويعلو عليها، فليس الجميل هو المفيد ماديًا، بل هو ما يثير فى النفس، لمن يحسه، مشاعر الانبهار والتقدير والمتعة الحسية والمعنوية، كما يؤثر فى سلوكه ويدفعه إلى المودة والتراحم والبناء، وتأكيد القيم الأخلاقية الإيجابية فى حياة الإنسان. لذلك يعتبر الجمال وتذوقه تحديًا بالنسبة للبيولوچيين التطوريين، ومن أكثر الجوانب غموضًا فى كنه الإنسان وماهيته.

وتذوق الجمال كما يعتمد على المواهب الكامنة فى النفس، فهو أيضًا يعتمد على معرفة مواطنه ومقوماته عن طريق التربية والتعليم، ويعتمد أيضًا اعتمادًا رئيسيًا على التدريب والممارسة تحت إشراف الأكثر معرفة وتذوقًا.

وهنا يقفز السؤال المهم: هل تذوق الجمال وتقدير مقوماته نسبى أم مطلق؟ بمعنى هل هو ذاتى؛ أى ما يراه الفرد جميلاً قد يراه الآخر غير جميل؟ أم موضوعى؛ أى إن مقومات الجمال واحدة وطرق تقييمها متفق عليها بين كافة البشر؟

فإذا كانت مقومات الجمال موضوعية وطرق تقييمها متفق عليها، فإننا نستطيع أن نثبت صحة أحكامنا أن هذا الشىء جميل!!

وهناك محاولات فى كثير من التخصصات للاتفاق حول تعريف وتحديد التوافق والانسجام والتوازن فى الشىء على أسس موضوعية، وإن كان العنصر الشخصى المرتبط بالمقدرة والتخيلية والحس الجمالى عنصرًا يُعْتَدُّ به ولا يمكن إغفاله.

وفى كل الأحوال كلما ازدادت مقدرة الفرد على تذوق الجمال ارتقى وتقدم فى مضمار الإنسانية.

الإنسان كوحدة بناء لمجتمع

وهذا ينقلنا إلى النظر والحكم على الفرد كوحدة بناء فى مجتمع ما، وكيف يمكن تقييم التقدم والتأخر فى هذا المجتمع؟.

(أ) الناحية البدنية والصحية

ولنبدأ بطرق الحكم على تقدم وتأخر المجموعات البشرية من الناحية البيولوچية والصحية، والتى ترتكز على العديد من الدراسات والخبرات التى قدمت المعاييروطرق القياس، والتقييم للمستوى البدنى والصحى لأفرادها، وقد وضعت الكثير من المعايير عن توزيع أحجام و أشكال و وظائف البدن فى الكثير من المجتمعات الإنسانية.

و عن طريق المقارنة بين هذه المعايير فى المجتمعات المختلفة، يمكن الحكم من هم الأكثر حجمًا و الأثقل وزنا . . . و غير ذلك من المواصفات المورفولوچية و الوظيفية للبشر. لكن يصعب الحكم بالتقدم و التأخر بناءً على المواصفات الفيزيقية، وهناك اتفاق بين الأكاديميين على أنه لا يجوز التفاضُل بين الناس بناءً عليها إلا فيما يخص التناسب مع العمل المطلوب.

ومن المعايير المعتبرة فى التقييم، الحالة البدنية والصحية فى المجتمعات المختلفة، وحساب نسبة وفيات المواليد والأطفال عامة، ومدى انتشار الأمراض بينهم، وكفاية غذائهم وسلامة نموهم وسرعته، أيضًا حساب طول العمر المتوقع عند المولَد، وكذلك مدى توافر إجراءات المتابعة والضبط لسلامة نقاء الشراب والطعام والهواء، وكذلك مدى فاعلية الإجراءات لتقليل الضجيج، ومحاربة التلوث السمعى والبصرى، والضغوط النفسية والعصبية.

من أهم هذه المعايير أيضًا حساب نسبة عدد السكان لمساحة الأرض المسكونة، أو ما يسمى قياس الكثافة السكانية، وصحة المسكن وتوفير المرافق بكافة أنواعها.

تقوم المجتمعات الإنسانية المعاصرة ببعض الإجراءات والمحاولات للرعاية الصحية والوقاية من الأمراض وحفظ البدن، و علاج المرض للجنسين وفى مختلف الأعمار، ومن المعايير المعتمدة فى المنظمات الدولية لهذا الغرض هو عدد الأطباء والممرضين وتوزيعهم جغرافيًا فى التخصصات المتنوعة بالنسبة لعدد السكان، عدد المستشفيات والعيادات والمراكز ووحدات الرعاية الصحية بالنسبة لعدد السكان، وكذلك توفير الدواء ووسائل العلاج بما يناسب دخل الأفراد.

إن وجود هذه المعايير والمقاييس فى مجتمع ما وإمكان تقييمها بدقة، قد يساعد على

تحديد مدى التقدم فى هذا المجتمع، فيما يخص الناحية البدنية والصحية، بالمقارنة لآخر.

(ب) الناحية الثقافية

حتى نحكم على أى مجتمع بالتقدم أو التأخر، علينا أن نُخضع كل عنصر من عناصر الثقافة للتقييم على ضوء التاريخ الإنسانى كله و على اتساع الكوكب.

إن ثقافة أى مجتمع هى شبكة من العناصر المترابطة فى المنشأ و التأثير؛ بعضها نتاج العقل بمفرده، كاللغة والفكر، وبعضها نتاج العقل و العضلات كالبناء والتكنولوچيا... و غيرها.

١ ـ اللغة

ونبدأ باللغة ونقول: كلما كانت لغة قوم وافرة الألفاظ، دقيقة المعانى، سلسة التعبير، قادرة على صياغة تجارب الناس ومعارفهم، ونقلها بين الأفراد بدون خلط أو تعقيد، كانت لغة متقدمة تزيد من تنوير العقول وثراء الفكر واتساع المعرفة مع عمق إدراكها.

واللغة وتطورها مرتبط ارتباطًا قويًا بتجارب الإنسان وتفاعله مع البيئة المحيطة من جماد، ونبات، وحيوان، وإنسان وغيرها، وما ينتج عن هذه التجارب من معرفة تبقى تصورًا ساكنًا وكامنًا فى الذهن إلى أن يستطيع أن يجد اللغة التى تساعد فى صياغة هذه المعرفة بدقة وتخرجها بصورة محسوسة لنفسه وللآخرين.

من المعروف أن هناك بعض اللغات التى حملت الفكر الإنسانى الرفيع فى فترات مختلفة من التاريخ، و بها مخزون المعرفة فى مختلف فروعها و فى مراحل تطورها، وتعتبر اليوم لغات حية ومستخدمة فى التنظيمات الدولية المعاصرة كهيئة الأمم المتحدة وغيرها. وهناك لغات أخرى يقتصر استخدامها على مجموعات محدودة العدد من الناس، ولكنهم يتمسكون بها ويعتبرونها ذخيرتهم ومخزون تجاربهم ومظهر تميزهم فى الحياة.

كلما استطاعت أمة أن تنقل خبرات الآخرين ومعارفهم إلى لغتها، زاد ذلك من قوتها ودفعها إلى تطوير هذه اللغة حتى تستطيع أن تمسك بكل ما ينتجه العقل الإنسانى.

وأعتقد أنه يمكن اليوم الحكم على لغة ما بالتقدم أو التأخر بمقدار ما يصدر بها من فكر وإنتاج للعقول والأفئدة فى مختلف العلوم والآداب. لكن ما يميز اللغة أيضًا ليس فقط كمية ما ينتج بها، بل نوعية هذا الإنتاج ومدى دقته وسهولة نقله من أمة إلى أخرى.

و فى كل الأحوال، تتقدم الأمم بسهولة إذا كانت لغة تعبيرها هى لغة تفكيرها، وبها تتم صياغة الفكرة الكامنة فى العقول، و بها يتم التعبير عنها و إخراجها بصورة محسوسة سواء مسموعة أو مقروءة.

٢ ـ الدين والقيم والأخلاق

ولنأخذ الدين كعنصر آخر من العناصر المركزية للثقافة، وكما سبق أن ذكرنا فإن الدين فى أساسه عقيدة إيمانية بماوراء الطبيعة من قوى، وقد تم تشخيص هذه القوى فى الديانات السماوية الثلاث بالله أو الرب. ومن صميم ديننا الإسلامى الحنيف أن لا إكراه فى الدين. . . لكم دينكم ولى دين. . . وعلى المسلم أن يجادل عن عقيدته بالتى هى أحسن.

هناك اختلافات بين المجموعات البشرية فى فهم العقائد، وكذلك فى ممارسة العبادات المرتبطة بالعقائد، لكن من المتفق عليه بين أئمة الفكر الإنسانى أنه كلما تسالمت العقيدة مع العقائد الأخرى وتجنبت تحقيرها وتلويثها الآخرين والاعتداء عليهم يمكن الحكم على أتباعها بأنهم متقدمون.

من الملاحظ أخيرًا أن بعض المجتمعات، وخاصة المتطورة ماديًا وتقنيًا، أخذت فى التحلل من العقائد الدينية وأصبحت تهاجم دين الآخر وتربط بينه وبين التخلف حينًا، بل والهمجية والإرهاب أحيانًا، وذلك كله بدوافع سياسية اقتصادية وليست لأسباب عقائدية إنسانية. هذا يعنى التخلف على المستوى الفكرى الإنسانى على الأقل لقادة تلك المجتمعات وصانعى سياساتهم. وهذا ينقلنا إلى النظر فى موضوع القيم والأخلاق والسلوك، وكيف يمكن الحكم عليها بأنها متقدمة أو متخلفة ؟

من المعروف أن الدين و العقيدة الدينية هى من أهم المصادر التى تدفع الفهم الإنسانى وتشكله فى موضوع القيم والأخلاق، وإن كانت كل العقائد تسعى بالإنسان لرفاهيته وسعادته، لكنها تحدد مجموعة من القيم النبيلة، تعتبرها هدفًا أسمى يجب

العمل على بلوغه، ومنها الحرية، والعدل، والإحسان، والتراحم، والمعرفة، والعمل... وهكذا.

هناك من المفكرين الأوروبيين من يقول: إن القيم النبيلة كالعدل والرحمة ما هى إلا حيل أخلاقية فى طبع الضعفاء لمساعدتهم على البقاء، وهذا يعوق التقدم الإنسانى؛ إذ يجب ألا يبقى إلا الأصحاء الأقوياء، فتكون إرادتهم هى الحق وسيادتهم هى الرحمة.

لكن القطاع الأكبر من الفلاسفة و المفكرين فى الشرق و الغرب على السواء يقولون إن القوة لا نعرفها إلا بالمقارنة بالضعف، والعدل لا نعرفه إلا على ضوء الظلم، والقوى لا يكون قويا إلا إذا استخدم قوته و أظهرها على الآخرين، و إذا كان الجميع أقوياء، تتحول المجتمعات البشرية إلى آلات صماء جامدة بلا تنافس و لا تدافع و لا طموح.

إن القسوة و الظلم يمكن أن يمارسه الضعيف و القوى على السواء، فالقسوة لا تدل على القوة و الرحمة لا تدل على الضعف، فالأطفال، على سبيل المثال رغم ضعفهم هم من أقسى المخلوقات. فالرحمة تتطلب نضجًا عاطفيًا و نفسيًا لتنقل الإنسان إلى درجة أسمى فى السلوك و التفاعل مع الآخرين، إذ عندما تقترن الرحمة بالقوة و تخدم القوة الحق يكون هذا هو التقدم الإنسانى، فليس هناك أكثر إنسانية من أن نستخدم القوة فى الدفاع عن الحق إن كان هذا الحق ضعيفًا لا يملك من الوسائل ما يحفظ أو يعيد حقًا مغتصبًا. هنا تبرز القيم الإنسانية الرفيعة التى تعتبر مقياسًا و معيارًا للتقدم الإنسانى المنشود.

وقد أضيفت فى القرون الأخيرة قيمة المنفعة بجهد عقلى إنسانى، بواسطة رجال الفكر الأوروبى الحديث، وذلك بدافع من تجاربهم وفهمهم لطبيعة الإنسان كجزء من الطبيعة الكبرى؛ ولذلك فهى فى نظرهم القيمة الأم والدافع الأول لمجموعة الأخلاق والسلوك التى يتبعها الإنسان لتحقيق تقدمه!

القيم النبيلة فى سموها ورفعتها كمفهوم عقلى، وغاية تسعى إليها النفس مرتبطة بأسلوب و وسائل تحقيقها على أرض الواقع حتى تكون محسوسة تضفى الاطمئنان والسعادة على النفس الإنسانية، ولكن إذا وجدت القيم الرفيعة وفشل الإنسان فى

سلوكه فى تحقيقها فى حياته اليومية، تكون بغير فائدة، بل تكون ضارة لما يؤدى إليه هذا التضارب بين الغاية والوسيلة من إفساد للنفس الإنسانية.

إن القيم الأخلاقية الجوهرية مرتبطة بروح الإنسان ووجدانه وليس ببدنه، وعلى ذلك فهى لا تتأثر بعمر الفرد أو بزمن الإنسانية، كما أنها لا تتبدل حسب المكان والظروف الاجتماعية أو الاقتصادية، فالصدق هو دائمًا الصدق، وكذلك مفهوم الأمانة والعدل... كل تلك قيم مرتبطة بالجوهر الروحى للإنسان، تدفعه إلى مجالات أرحب من مجرد تجنب الإيذاء البدنى أو السعى للمتع الحسية، بل تأخذ بيده إلى مجالات غير محدودة من المتع الروحية واللذة المعنوية.

كان الهدف الأول للدين هو السعى لمكارم الأخلاق، وترويض الشهوات، والتحكم فى الرغبات البيولوجية بما يرفع الإنسان من مدارك الحيوانية إلى مستوى أنبل من الوجود دون مبالغة أو إفراط، وبدون تعذيب الجسد أو كراهية متع الحياة؛ لأن ذلك فى رأى الكثيرين تشويه للعقائد الدينية.

ويقول فقهاء الدين الإسلامى المستنيرون بأن الإسلام كعقيدة دينية ربط بين الحركة فى الأرض والغاية النهائية منها، وهى إرضاء الروح وسكينة النفس مروراً بالنصيب من الدنيا وكفاية البدن وصحته وسلامته؛ إذ إن سلطان التنوير والصلاح على الجسم الصحيح أقوى من سلطانه على الجسم الضعيف المريض.

إن إيمان أصحاب العقيدة الدينية بولائهم للخالق الأعظم صاحب القدرة المطلقة، ومصدر القوة والعزة والكرامة لا يعنى إهمالهم كجماعة للبحث عن أنسب الطرق والوسائل للحصول على تلك القوة والعزة فى حياتهم، إن قناعة المؤمن بأن الله قريب، ولا يوجد حواجز بينه وبين عباده لا يعنى الفردية والتفكك وانتظار الخير من المجهول، بل السعى لاستيعاب تجارب الآخرين؛ إخوانهم فى البشرية.

أعتقد أن تطويع القيم الإنسانية الرفيعة لكى تخدم قيمة المنفعة المادية الملموسة لمجتمع ما، تعتبر نوعًا من الأنانية والتعصب للذات ويعصف بالمفهوم الإنسانى المجرد للعدل والتراحم بين الناس.

إن المنفعة كقيمة قد توفر للإنسان الرفاهية الاقتصادية ولكنها قد تخرب المجتمع

بالنهب والتضليل، بل قد تخرب نفس الفرد كوحدة بناء هذا المجتمع، وتجعلها خاوية قلقة لاتأمن للمحيطين..

٣ـ المعارف والعلوم

ولنلق نظرة على عالم المعرفة وكيف يمكن تقييم مدى تقدمه أو تأخره فى مجتمع ما. يقولَ بعض المفكرين المعاصرين أنه لاتوجد معرفة غير المعرفة العلمية؛ أى تلك المعارف المرتكزة على الترتيب والتنظيم، ويمكن تحقيقها أو تعديلها وبيان أوجه القصور بها عن طريق التجربة، والمشاهدة، باستخدام الحواس، والمنطق العقلى، والمطابقة مع واقع الحياة.

ويجب أن نميز بين المخزون المعرفى فى أمة ما والمعارف المتداولة بين الناس والمستخدمة فى سير سبل الحياة، وذلك حيث إن المعارف شيء واستخدامها فى الحياة اليومية شيء آخر، وبينهما لابد أن تتوافر ملكات ونشاطات تجعل من المعروف محسوسًا.

والمعرفة فى ذاتها محايدة و مطلوبة فى كل فرع من فروعها، أو بقدر ما يستطيع الإنسان، ويحكم تطبيقها و العمل بمخرجاتها منظومة القيم داخل المجتمع، ويخضع لمختلف عناصر ثقافته و على رأسها الأخلاق و الدين.

وعلى العموم، أعتقد أن المعرفة العلمية غير المعرفة الشعبية أو الحرفية التى يستخدمها الناس فى قضاء حاجاتهم اليومية، وكلتاهما تختلفان عن بعضهما البعض فى كمية وكيفية دور العقل والوعى الناقد لمحتوى هذه المعارف؛ بمعنى أنه يمكن أن أكون نجارًا طوال حياتى أعرف كيف أصنع الكرسى بالتقليد للأكبر سنًا والأكثر خبرة فى صناعة الكراسى، وهنا سيكون نشاط العقل محدودًا فى إطار تنظيم الحركات العضلية، أما إذا زاد هذا النشاط العقلى وبدأ يمتد إلى نقد ما يجرى ومحاولة تحسينه، أو اقتصاد الجهد فى تنفيذه، أو البحث عن بدائل أكثر راحة وسلامة، فهنا قد بدأت المعرفة تصبح معرفة علمية.

ويمكن النظر إلى المعرفة العلمية نظرة مجردة كنشاط لعقل الإنسان كفرد يبحث فى مصادر هذه المعرفة، وتطورها فى مضمونها، ومدى صدق أو كذب مقولاتها. ويمكن

أيضًا النظر للمعرفة العلمية كنتاج لعقل إنسان يعيش فى مجتمع (بين أفراد لهم عقول أيضًا)، ويتأثر بالواقع الاجتماعى بما فيه من تفاعلات بين الأفراد أو أنساق أو نظم اجتماعية، فينعكس هذا التأثير على نوع المعرفة وعمقها، وقد تقيد التقاليد الاجتماعية المهيمنة الانطلاق الفكرى، وتمنع أى تغيرات فكرية جذرية.

والمعرفة العلمية فروع ومجالات وتخصصات؛ بعضها يتصل بالانسان والأخرى بالطبيعة، بعضها يبحث فى الصناعة، والأخرى فى الزراعة، بعضها متصل بالبناء والأخرى بالنقل. . . وهناك العديد من الاجتهادات لتصنيف العلوم وتقسيمها تبعًا لمادة البحث أو منهجه.

أعتقد أن من أنسب التصنيفات الموضوعية هو تقسيم المعارف العلمية إلى أربعة أقسام رئيسية كالآتى:

(أ) العلوم الطبيعية: والتى تبحث فى العالم المحسوس والمادة، ومنهجها الاستقراء التجريبى للتعرف على ماهية الطبيعة المحيطة بالإنسان (وبدن الإنسان نفسه أيضًا)، وعناصرها وخواصها وطريقة تفاعلات مكوناتها ونتائج هذه التفاعلات، ومنها علوم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، والبيولوچيا، وتطبيقاتها فى الطب والزراعة والهندسة. وغاية هذه العلوم الشرح و التحليل والربط بين السبب والنتيجة وأدوات هذه العلوم استخدام الحواس وتعظيمها والإدراك العقلى.

وقد أصبحت العلوم الطبيعية بالتدريج تكون لنفسها عالمًا خاصًا مؤلفًا من فروض وكيانات عقلية رياضية ليس لها وجود فى عالم الظواهر، كالطبيعة النظرية مثلاً، وذلك بهدف فهم أوضح أو أكثر انضباطًا للعالم المعقول. و اتجهت أخيرًا نحو الاحتمالية فى الرؤية، وتحديد درجة اليقين بجانب القوانين الجبرية الجامدة، وخاصة فى العلوم البيولوچية المتصلة بعالم الأحياء.

(ب) العلوم الرياضية: وهى نشاط عقلى يسعى للاستنباط بناءً على بديهيات ومسلمات منطقية.

أخذت العلوم الرياضية تزحف نحو العلوم الطبيعية وتدخل فى فروضها، وتساعد على الشرح والاستقراء للظواهر الطبيعية بصورة أفضل، ومنها الحساب والجبر وحساب المثلثات والتفاضل والتكامل والإحصاء الرياضى. . . وغيرها.

(ج) العلوم الإنسانية : وغايتها الفهم والتفسير للأحداث والدوافع بغرض تنظيم وترشيد السلوك الإنسانى :

الدوافع الإنسانية ليست سطحية أو بسيطة كما فى عالم الحيوان المحكوم بالغرائز والفعل ورد الفعل الانعكاسى ، بل هى مركبة وغامضة ، الدوافع الإنسانية فيها طموحات وتأملات وذكريات ، فيها إحساس بالذنب وزهو بالمقدرة ، فيها ضمير يراقب ، وإحساس بالألفة والرضا والاطمئنان ، وفيها إحساس بالاغتراب والفراغ والخواء الداخلى ، لذلك يمكن التعرف على هذه الدوافع بالاجتهاد فى البحث داخل الذات والتعايش والتعاطف ، وأدواتها التصور والتخيل بجانب الإدراك الحسى ، وغير وارد فى العلوم الإنسانية القوانين الصارمة والصيغ الرياضية الجامدة والتفسيرات الكلية النهائية .

العلوم الإنسانية تشمل : علوم الدين ، واللغة ، والفلسفة ، والقانون ، والاجتماع ، والسياسة والاقتصاد . . . وهكذا .

(د) العلوم التكنولوچية : وهى العلوم التى تنظم وتطبق المعارف السابقة من طبيعية ورياضية ، وإنسانية فى تحديد كيفية إنتاج منتجات جديدة فى صورة مواد وأدوات وآلات وماكينات وتركيبات ثابتة ومتنقلة بهدف تسهيل حياة الناس وحرية حركتهم وشتى مجالات الاستمتاع واللهو والرفاهية .

من ناحية أخرى دخل المفهوم التكنولوچى فى علوم الحياة والأحياء ، وخاصة فى العقود الأخيرة تحت ما يسمى التكنولوچيا الحيوية ، وأمكن التدخل فى البناء الوراثى لبعض الأحياء ، أو استنساخه معمليًا ، أو التعديل بالزيادة أو بالنقص ، أو التركيب فى الشفرة الوراثية ، أو الچينوم للكائن الحى .

وقد بدا واضحًا أن تطبيق المعارف العلمية وانطلاقها إلى أهداف اقتصادية بلا قيود من قيم سامية ، وأخلاق كريمة مستمدة من عقائد دينية ومعارف إنسانية ، ليست فى صالح الإنسانية . أصبحت وما زالت نتائج التكنولوچيا الحديثة سواء فى عالم الأدوات والآلات ، للحاجة أو بدون حاجة حقيقية ، تحت تأثير وسائل الإعلام التى تحاول إقناع الناس بأهميتها واحتياجهم لها وربطها بالتميز والحداثة ، أو فى عالم الأحياء وتأثيراتها

على الحياة الإنسانية، ومعرفة جوانب الخير والشر فيها، ومازالت تلك النتائج تحت التأمل والدراسة والبحث.

والتفكير العقلى للإنسان على العموم يدور حول محاور محددة؛ إما يبحث فى منشأ الأشياء(ومنها البشر) ومصيرها، ويسند ذلك بقدراته التخيلية إلى القوى فوق الطبيعية، ويحاول أن يشخص هذه القوى فيراها فى الأنهار، أو النجوم، أو فى الخالق الأعظم«الله» أو «الرب». وقد يدور التفكير العقلى حول محور الطبيعة كما يحسها الإنسان بحواسه ويدركها بعقله، يحاول أن يتعرف على ماهية الأشياء وتركيبها ووظائفها، ومدى نفعها أو ضررها فى حياته اليومية، وكل نوع من هذين الاتجاهين فى التفكير يبدأ بأحدهما وينتهى بالآخر.

ويلاحظ أن الشرقيين على العموم يركزون على منشأ الأشياء، ومنها الإنسان نفسه، ويهتمون بمصيرها، وبطبيعة الحال ـ ونتيجة لحدود بناء المخ فى الإنسان ـ يعجزون عن تحقيق ذلك بالإدراك الحسى فيستعيضون عنه بالتخيل والتصور فيما وراء الطبيعة. . ولكون هذه الأمور صعبة ومعقدة وخارج مقدرة العقل فيصدقها الإنسان بالإيمان بدون الحاجة إلى برهان أو دليل مادى حسى.

أما الغربيون فقد اهتموا بمعرفة الطبيعة وتركيبها، واستنباط قوانين عملها، وأقاموا البراهين على معرفتهم بآليات الإدراك الحسى.

لقد نشط الفكر الدينى فى الشرق حيث ظهرت الديانات والعقائد، وانتقلت منه إلى الغرب الذى وجد فيها ما يساعده على التوازن النفسى أمام قسوة الطبيعة وصعوبة العيش وعنف الصراع بين سكانه، وقام أهل الغرب بتعديل مسارهم الدينى أكثر من مرة بواسطة المنطق العقلى وإطلاق العنان للفكر الإنسانى متحرراً من كل القيود التى وضعها وبالغ فيها رجال الدين، فى الأغلب بدافع الحفاظ على استقرار الأحوال واستمرار مميزاتهم الدنيوية. وخلال القرون القليلة الأخيرة من عمر الإنسانية، حقق العقل الغربى إنجازات غير مسبوقة فى مختلف فروع العلوم الطبيعية الأساسية، منها والتطبيقية، فتم معرفة الكثير عن المادة وتركيبها، والفيزياء وفروعها، وعلم الحياة وتصنيف الأحياء، واكتسب الإنسان معرفة أعمق وأشمل عن الجسم البشرى وكيفية

أدائه لوظائفه، وأمكن تطبيق العديد من هذه المعارف العلمية عن الطبيعة بما فيها الإنسان لتسهيل الحياة، واقتصاد الطاقة ومحاولة علاج عيوب بدنه وأمراضه، وزيادة إمكانية صنع الآلات والمعدات بوفرة هائلة. كل هذا تم فى أقل من خمسمائة عام، وهى فترة قصيرة بالمقارنة للتاريخ الطبيعى والثقافى «للإنسان العاقل» الذى بدأ يعى نفسه والكون حوله منذ ما يقرب من خمسين ألف سنة، وبدأ فى اكتساب طعام من صنع يده منذ حوالى عشرة آلاف سنة (أى أن طفرة التقدم العلمى الطبيعى والتكنولوچى فى الغرب تم فى ١/ ١٠٠ من التاريخ البيولوچى للإنسان العاقل و١/ ٢٠ من التاريخ الثقافى تقريبًا).

أما إنسان الشرق المشغول «بعظائم الأمور» وعنده من اليقين بقربه من الخالق ما يجعله مطمئنًا، فلم يجار هذا الفكر المحموم لمعرفة الطبيعة فى الغرب. وأعتقد أن ذلك ليس لعجزه الثقافى أو قصوراً فى بناء فكره التخيلى الإدراكى، بل قد تكون هناك أسباب أخرى، منها على سبيل المثال:

- هل بسبب تمييز الشرقى للمعنوى فوق المادى؟
- هل سمواً فوق الغرائز والحاجات الدنيوية؟
- هل تكاسلاً وإحجامًا عن العمل المنتج للأدوات وعدم العمل نحو اقتصاد الطاقة المبذولة فى العمل؟
- هل بسبب حسن النية والجهل بمدى عنف وقسوة الآخر؟
- هل نتيجة لعدم الفهم الصحيح لروح عقائدهم الداعية للعمل الصالح والعدل فى توزيع نتاج هذا العمل والتراحم والتعاون فيما فيه خير الدنيا والآخرة؟
- هل بسبب تقديس الحاكم كالإله وابن الإله وظل الإله أو خليفة الرسول الذى اصطفاه الإله؟ وعلى ذلك فمعارف الرعية مرتبطة بتوجيه ووعى و معارف الراعى ومساعديه؟!

الشرقيون وضعوا العقيدة الدينية محور تفكيرهم الأول، واستخدموا طاقاتهم العقلية التخيلية التصويرية فى إنتاج آداب من شعر ونثر، وكذلك فلسفات. وقام العقل الشرقى أيضًا تحت مظلة الثقافة العربية الإسلامية، فى فترات كثيرة وعلى مدى قرون

سابقة، بدراسة واستيعاب المعارف السابقة عن الطبيعة، وقام بتنظيمها وترتيبها والإضافة المعنوية الكاشفة، إليها فى فروع عديدة ومتنوعة، بل أضاف فروع علم جديدة مما جعلها أساسًا متينًا وهيكلاً صلبًا، وحينما تعرف عليه الغرب، انطلق فى البناء عليه فى القرون القليلة الأخيرة، وزاد تمركز فكره حول الطبيعة وأنتجوا من المعارف ما ساعدهم فى حياتهم اليومية، وعندما أحس الغربيون بقوتهم المادية، بدءوا فى التحرر من الالتزام الدينى«الأرثوذوكسى»، والانطلاق للسيطرة والسيادة.

تشير الوقائع التاريخية بوضوح إلى أن إنسان الشرق وجد نفسه فى القرون القليلة الأخيرة أمام معارف ونظم وجيوش وأساطيل آتية من الغرب تستغله، بل تحتله وتسحقه كلما أبدى اعتراضًا

وبدأ أخيرًا فلاسفة الغرب فى التأكيد على قيمة الإدراك الحسى، وأن الإنسان جزء من الطبيعة فى مادته ويلتزم بقوانينها إلى حد بعيد فى سلوكه. أما نحن فى الشرق فمازلنا نؤمن بازدواجية جوهر الإنسان، ففيه جانب بيولوچى طبيعى، وجانب روحانى مقدس من الخالق الأعظم الذى عنده المعرفة المطلقة.

أين التقدم والتخلف فى كل هذا ؟!

أعتقد أنه ليس هناك عذر مقبول لاستمرار الشرقيين فى تخلفهم الحالى عن الغربيين فى مجالات العلوم الطبيعية والتكنولوچية الحديثة، فهم أسبق لمعرفة أصولها ويقدرون على استيعاب الجديد منها والتفوق فيه. وهناك بوادر تغيير واضحة فى أقصى الشرق (اليابان والصين) تشهد بذلك. أما استيعاب الغربيين لفكر الشرقيين وقيمهم وفلسفاتهم فأصعب ويتطلب وقتًا أطول.

أعتقد أن الطريق الأضمن للتوازن العالمى بين البشر وتكامل مقدراتهم وثقافاتهم، هو تقدم الشرقيين للإمساك بزمام العلوم الطبيعية والتكنولوچية (إذا تمكنوا من ذلك) لأنه أقرب للتحقق فى رأيى من فهم الغربيين لآمال وطموح الشرقيين.

الاقتصاد والسياسة

إذا كان الاقتصاد هو التعامل مع الثروات الطبيعية الموجودة فى البيئة المحيطة حتى

يتمكن الإنسان من الحصول على أعلى عائد مادى مع بذل أقل جهد، فإن السياسة هى إدارة النشاط الإنسانى، وتنظيم حركة الأفراد والمجتمع حتى يحقق احتياجاته. لذلك يربط الأكاديميون السياسة بالاقتصاد غالبًا.

هناك عوامل خمسة أساسية لتكوين العقل الجماعى للمجتمعات الإنسانية، هى اللغة، الدين، المعارف، الاقتصاد والسياسة. وهذه موضوعات شغلت الإنسان منذ آلاف السنين، وتم تسجيل الخبرات والمعارف وتوثيقها فى صور، ومخطوطات، ووثائق وكتب، وعلى القارئ المهتم أن يرجع إلى المصادر المعتبرة فى كل فرع من فروع هذه المعارف، ولكن ما نقصده هنا هو محاولة توضيح الروابط والعلاقات بين هذه الموضوعات ومدى تأثير أحدها على الآخر كمدخل للفهم المستنير لموضوع التقدم والتأخر من جوانبه المختلفة.

من المعروف أن نسبة مشاركة كل عامل من هذه العوامل فى بناء العقل الجماعى تتباين من زمن إلى آخر فى المجتمع الواحد، ومن مجتمع إلى آخر فى الزمن الواحد، ولكل من هذه العوامل صوره المتعددة وأدواته وآلياته التى تحقق دوره فى البناء، وقد سبقت الإشارة إلى دور اللغة والدين والعلم فيما سبق.

حاولت السياسة، ومنذ البداية، استغلال القوى الغيبية لما وراء الطبيعة لتعزيز دور الحاكم، وتثبيت أركان حكمه فى صورة قبيلة، أو إمارة، أو مملكة، أو جمهورية... إلخ، وذلك بالاستعانة ببعض الأفراد ذوى الكفاءات الخاصة من السحرة والكهنة ورجال الدين، وأخيرًا الخبراء والمستشارين. كذلك أعد الحكام فى سبيل ذلك مجموعة من أفراد المجتمع لحمايتهم، وتنفيذ ما يطلب منهم مقابل تهيئة الطعام والملبس والمسكن لهم. وحتى يمكن توفير احتياجات القوة المنفذة لإرادة الحاكم، تشارك أفراد الرعية فى نتاج عملهم بوسائل مختلفة، منها القسر، والجباية، والضرائب.. وغير ذلك. من هنا دخل الاقتصاد كعنصر أساسى فى إدارة وقيادة المجتمعات، وتباينت حقوق الأفراد داخل المجتمعات بين الاستعباد والملكية إلى سيادة طبقة على أخرى ثم محاولة المساواة، والتكافل بين الأفراد.

مع تطور نشاط الأفراد لتوفير احتياجاتهم وأسرهم اليومية، ومع زيادة أعداد

المجتمعات وتنوع احتياجاتهم وانطلاق تطلعاتهم، تطورت نظمهم الاقتصادية من العبودية إلى الإقطاع إلى الرأسمالية إلى الاشتراكية . . . وغير ذلك .

ومن آليات إدارة المجتمعات، التحكم المطلق للحاكم حسب رؤيته ونصائح أسرته والمحيطين به، إلى مشاركة الجميع فى إدارة شئونهم ـ وإن صعب ذلك ـ ويكون القرار لأغلبية الأفراد، وهناك الأسلوب الوسط بأن يكون القرار للحاكم، ولكن بعد مشاورة أفراد مجتمعه ومعرفة وجهات نظرهم فى الأمر، وكل من هذه الآليات لها متطلباتها، وعلى سبيل المثال مشاركة الجميع فى اتخاذ القرار يتطلب التنظيم والاهتمام والتفكير فى الأمر المعروض بواسطة كل فرد فى المجتمع سواء كان هذا الأمر يمس حياته شخصيًا بشكل مباشر أو يمس قطاعات أخرى من المجتمع . أما الشورى واستنارة الحاكم برأى ذوى الحل والعقد فى الموضوع، فهذا النظام يتطلب توفر الحاكم العالم الحكيم الذى يستطيع أن يتبين الصالح فيما يرى، ويسمع، ويجمع، وينقى خلاصته ويطبق الخير للجميع . وكما هو واضح فإن كلا الطريقين صعب، فالأول يتطلب أفرادًا يتمتعون بالإيجابية والفهم والإيثار، والثانى يتطلب حاكمًا ملهمًا مصطفى بقوة عليا .

ارتبط تطور النشاط الاقتصادى فى المجتمعات الإنسانية بزيادة المعارف والعلوم وتراكم الخبرات، وخاصة فى القرون الأخيرة، مما حدا بالحكام للنظر فى موضوع المعارف والعلوم نظرة فاحصة :

ـ هل تشجيع زيادة المعارف والعلوم بين رعيتهم فى صالح تثبيت دعائم حكمهم واستقرار إدارتهم وزيادة ثروتهم ؟

ـ هل زيادة المعارف تؤدى إلى إضاءة العقول وتنوير الشعوب وليس فقط زيادة دخلهم، مما قد يدفع الناس للحفاظ على هذا الدخل والتدقيق فى محاسبة الحكام فيما يحصلون عليه منهم، وذلك مع أبسط الفروض ؟

لا شك أن الاقتراب من معرفة خصائص الطبيعة وتحديد بعض قوانين عملها وتطوير تلك المعارف لاستخدامها فى تسهيل حياة الناس، كان من العوامل الرئيسية للتنبيه لفائدة العلوم من الناحية الاقتصادية، وعلى سبيل المثال استخدام البخار وظاهرة تحويل السوائل إلى غازات وما يصاحبها من توليد طاقة أمكن تحويلها إلى قوة

ميكانيكية، واستبدالها بالطاقة الحيوية للإنسان والحيوان، كان مثالاً واضحًا، ومنذ قرون، لإمكان الاستفادة من المعارف العلمية كمصدر مهم من مصادر الرخاء المادى.

وعلى العموم فإدارة شئون الناس وتنمية قدراتهم على الإنتاج المفيد وتوزيعه بعدالة كانت دائمًا من أحلام البشر المستعصية على التنفيذ على مر التاريخ. لأنه بجانب الرغبة فى عمل الخير والقناعة والإيثار، كانت هناك دائمًا الشراهة، والطمع، والتعصب، والأنانية وحب الذات كصفات للنفس الإنسانية. فإذا تم تنشيط هذه الصفات السلبية فى نفوس الحكام أو المحيطين بهم، دفعتهم إلى الاستئثار لأنفسهم وأسرهم والأقرباء منهم بمعظم الفائدة والثروات والإنجازات التى تحققها الرعية، أوالتى تمتلكها الشعوب الأخرى الأقل كفاءة فى الدفاع عن نفسها وممتلكاتها عن طريق الغزو والاحتلال تحت مختلف المسميات.

وأعتقد أنه من المؤشرات الرئيسية للتقدم السياسي في المجتمعات هو قيام الحكام بتشجيع البحث العلمي وتخصيص نسبة ملائمة من الدخل القومي للإنفاق على تحصيل المعارف والعلوم دون النظر للعائد الاقتصادي المباشر في زمن الإنفاق.

لكن يبقى السؤال: من يقوم باختيار النشاط العلمى المفيد فى مجتمع ما؟ ومن يقوم بمتابعة التنفيذ والالتزام بانضباطه، ومتابعة مايتم بعين فاحصة حسب الأصول الموضوعية المطلوبة ؟ ومن يقوم بتصنيف المنتج العلمى وفرزه لاستخراج ما يمكن أن يكون ذا فائدة مباشرة فى حياة الناس ؟

خلال القرن الأخير، تم التركيز على تقييم ثقافات الشعوب ومدى تقدمها أو تأخرها عن طريق الدخل المادى والمستوى الاقتصادى، وأصبح السائد أن الشعوب الفقيرة متخلفة والشعوب الغنية متقدمة، وعلى ذلك يمكن تبسيط الأمر وحساب درجة التقدم والتأخر بحساب الدخل القومى السنوى لمجموعة أو أمة أو دولة وقسمته على عدد أفراد هذه الدولة، وبناء على مستوى الدخل السنوى للفرد دون أى اعتبار للتفاوت بين دخول الأفراد، ومهما كان واسعًا، يمكن تصنيف الدولة ومرحلة تقدمها.

على الرغم من أنه يمكن التسليم بأن المستوى الاقتصادى لمجتمع ما يعتمد على عدة عوامل، أهمها الثروة الطبيعية، والثروة البشرية وقدراتها المعرفية على التعامل مع هذه

الثروة، واستخراجها وتصنيعها وتوزيعها، وأن ذلك لايمكن أن يتم بصورة فاعلة إلا من خلال لغة تواصل سليمة، وعلم وافر، وتكنولوچيا متعددة المنتجات؛ أى أن يكون هناك تميز فى عناصر ثقافية أخرى متعددة حتى يمكن أن يكون دخل الفرد عاليًا ويحقق الرفاهية الاقتصادية.

لكن من الخطأ التركيز على الجانب الاقتصادى، والاكتفاء بتحقيق الاحتياجات الحيوية للإنسان من طعام وملبس ومسكن ووسائل انتقال... إلخ، وغض الطرف عن الجانب الروحى الذى يحدد الأهداف والغايات، ويضع القواعد والوسائل، ويفى بالاحتياجات المعنوية والنفسية من رخاء وسعادة واطمئنان للنفس.

* * *